سورة العصر

ثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ①﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ اعلم أنهم ذكروا في تفسير العصر أقوالاً:

الأول: أَنَّهُ الدهر، واحتج هذا القائل بوجوه: **أحدها:** ما روي عن النبي ﷺ أنه أقسم بالدهر[1]، وكان عليه السلام يقرأ: (والعصر ونوائب الدهر) إلا أنا نقول: هذا مفسد للصلاة، فلا نقول: إنه قرأه قرآنًا بل تفسيرًا، ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره في: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾[الإنسان: ١] ردًّا على فساد قولهم بالطبع والدهر. **وثانيها:** أن الدهر مشتمل على الأعاجيب؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم، فإنه مجزأ مقسم بالسنة، والشهر، واليوم، والساعة، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة، وكونه ماضيًا ومستقبلاً، فكيف يكون معدومًا؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة، والماضي والمستقبل معدومان، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود؟ **وثالثها:** أن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلو ضيعت ألف سنة، ثم تُبتَ في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد، فعلمت حينئذٍ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦٢] **ورابعها:** وهو أن قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾[الأنعام: ١٢] إشارة إلى المكان والمكانيات، ثم قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[الأنعام: ١٣] وهو إشارة إلى الزمان والزمانيات، وقد بينا هناك أن الزمان أعلى وأشرف من المكان، فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسمًا بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته. **وخامسها:** أنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر، فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان. **وسادسها:** أنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقصان عين

---

(١) لم أجده.

الخسران، ولذلك قال: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ومنه قول القائل:

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الأَجَلِ(١)

فكأن المعنى: والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسانُ بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر.

والقول الثاني وهو قول أبي مسلم: المراد بالعصر أحد طرفي النهار، والسبب فيه وجوه أحدها: أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعًا من دلائل القدرة، فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ويقام الموازين، وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسرًا، فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر. **وثانيها:** قال الحسن رحمه الله: إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهًا على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ما هو حقه، فحينئذٍ تخجل فتكون من الخاسرين، فكذا نقول: والعصر، أي عصر الدنيا، قد دنت القيامة و(أَنْتَ) بعد لم تستعد، وتعلم أنك تُسأل غدًا عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك، وتُسأل في معاملتك مع الخلق، وكل أحد من المظلومين يدعي ما عليك فإذا أنت خاسر، ونظيره: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، **وثالثها:** أن هذا الوقت معظم، والدليل عليه قوله عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ بَعْدَ الْعَصْرِ كَاذِبًا لاَ يُكَلِّمُهُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢) فكما أقسم في حق الرابح بالضحى، فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر، وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح وبشَّر الرسول أن أمره إلى الإقبال، وههنا في حق الخاسر توعده أن أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول: بعض النهار باقٍ فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة، وعن بعض السلف: تعلمت معنى السورة من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله. فقلت: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر.

القول الثالث وهو قول مقاتل: أراد صلاة العصر، وذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** أنه تعالى أقسم

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة للشاعر نافع الخفاجي وهو نافع بن الجوهري بن سليمان بن حسن مصطفى الخفاجي التلباني ١٢٥٠ - ١٣٣٠ هـ/ ١٨٣٤ - ١٩١٢م فاضل، كثير النظم، من أهل (تلبانة) من قرى المنصورة بمصر، تعلم في الأزهر، وعاد إلى قريته وتوفي بها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الشرب والمساقاة) باب (إثم من منع ابن السبيل من الماء) (٥/ ٤٢) حديث رقم (٢٣٥٨) ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (بيان غلظ تحريم إسبال الإزار) (١/ ١٧٣/ ١٣) كلاهما من طريق الأعمش. . . به بلفظ: (ورجل حلف على سلعة بعد العصر كاذبًا. . .) وابن منده في (الإيمان) (٢/ ٦٥١) حديث رقم (٦٢٢) وأبو عوانة في (مستخرجه) (١/ ٥٩) حديث رقم (٩٥) وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٣/ ٥٧) حديث رقم (٣٧٧٧) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . بلفظه.

بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله: (الصلاة الوسطى، صلاة العصر) في مصحف حفصة وقيل في قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦]: إنها صلاة العصر. **وثانيها:** قوله عليه السلام: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»(١) **وثالثها:** أن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم. **ورابعها:** روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول: دلوني على النبي ﷺ! فرآها رسول الله ﷺ فسألها: «مَاذَا حَدَثَ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ زَوْجِي غَابَ عَنِّي فَزَنَيْتُ فَجَاءَنِي وَلَدٌ مِنَ الزِّنَا، فَأَلْقَيْتُ الْوَلَدَ فِي دَنٍّ مِنَ الْخَلِّ حَتَّى مَاتَ، ثُمَّ بِعْنَا ذَلِكَ الْخَلَّ فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «أَمَّا الزِّنَا فَعَلَيْكِ الرَّجْمُ، أَمَّا قَتْلُ الْوَلَدِ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ، وَأَمَّا بَيْعُ الْخَلِّ فَقَدِ ارْتَكَبْتِ كَبِيرًا، لَكِنْ ظَنَنْتُ أَنَّكِ تَرَكْتِ صَلاَةَ صَلاَةَ الْعَصْرِ»(٢) ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة. **وخامسها:** أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة بها يختم الأعمال، فكما تجب الوصية بالتوبة، كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخواتيمها، فأقسم بهذه الصلاة تفخيمًا لشأنها، وزيادة توصية المكلف على أدائها، وإشارة منه أنك إن أديتها على وجهها عاد خسرانك ربحًا، كما قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٧] **وسادسها:** قال النبي ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ -[عَدَّ] مِنْهُمْ- رَجُلٌ حَلَفَ بَعْدَ الْعَصْرِ كَاذِبًا»(٣) فإن قيل: صلاة العصر فعلنا، فكيف يجوز أن يقال: أقسم الله تعالى به؟ والجواب: أنه ليس قسمًا من حيث إنها فعلنا، بل من حيث إنها أمر شريف تعبَّدنا الله تعالى بها.

القول الرابع: أنه قسم بزمان الرسول عليه السلام، واحتجوا عليه بقوله عليه السلام: «إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَثَلُ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى الظُّهْرِ بِقِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ بِقِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ؟ فَعَمِلْتُمْ أَنْتُمْ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلاً وَأَقَلُّ أَجْرًا! فَقَالَ اللَّهُ: وَهَلْ نَقَصْتُ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَهَذَا فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ. فَكُنْتُمْ أَقَلَّ عَمَلاً وَأَكْثَرَ أَجْرًا»(٤) فهذا الخبر دل على أن العصر هو الزمان المختص به وبأمته، فلا جرم أقسم الله به، فقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أي والعصر الذي أنت فيه. فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] وبعمره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢] فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم حال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (مواقيت الصلاة) باب (إثم من فاتته العصر) (٢/ ٣٧) حديث رقم (٥٥٢) من طريق مالك عن نافع... به ومسلم في كتاب (المساجد) باب (التغليظ في تفويت صلاة العصر) (١/ ٢٠٠/ ٤٣٥) من طريق مالك... به وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٤) من طريق عبيد الله... به، كلاهما (عبيد الله، مالك) عن نافع... به.

(٢) لم أجده. (٣) تقدم.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الإجارة) باب (الإجارة إلى نصف النهار) (٢/ ٧٩١) حديث رقم (٢١٤٨) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٦) حديث رقم (٤٥٠٨) كلاهما من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر... به.

الظرف فقس حال المظروف، ثم وجه القسم، كأنه تعالى يقول: أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم، وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك، فما أعظم خسرانهم وما أجل خذلانهم!!

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الألف واللام في الإنسان يحتمل أن تكون للجنس، وأن تكون للمعهود السابق، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين: **الأول:** أن المراد منه الجنس، وهو كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان. **والقول الثاني:** المراد منه شخص معين، قال ابن عباس: يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب. وقال مقاتل: نزلت في أبي لهب، وفي خبر مرفوع: إنه أبو جهل، وروي أن هؤلاء كانوا يقولون: إن محمدًا لفي خسر، فأقسم تعالى أن الأمر بالضد مما يتوهمون.

المسألة الثانية: الخسر: الخسران، كما قيل: الكفر في الكفران، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال، ثم فيه تفسيران، وذلك لأنا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره، إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله؛ لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية، وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه في الضلالة والكفر إلا من آمن من هؤلاء، فحينئذٍ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ ولم يقل: (لفي الخسر) لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير أخرى، فإن حملنا على الأول كان المعنى: إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم، وإن حملناه على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان، وفيه بشارة أن في خلقي من هو أعصى منك، والتأويل الصحيح هو الأول.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ يفيد التوحيد، مع أنه في أنواع من الخسر. **والجواب:** أن الخسر الحقيقي هو حرمانه عن خدمة ربه، وأما البواقي وهو الحرمان عن الجنة والوقوع في النار، فبالنسبة إلى الأول كالعدم، وهذا كما أن الإنسان في وجوده فوائد، ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي لما كان هذا المقصود أجَلَّ المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم.

واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر: **أحدها:** قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ يفيد أنه كالمغمور في الخسران، وأنه أحاط به من كل جانب. **وثانيها:** كلمة (إنَّ)، فإنها للتأكيد. **وثالثها:** حرف اللام في ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾.

وههنا احتمالان:

الأول: في قوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي في طريق الخسر، وهذا كقوله في أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] لما كانت عاقبته النار.

الاحتمال الثاني: أن الإنسان لا ينفك عن خسر؛ لأن الخسر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عمره، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضًا حاصل، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنًا من أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائمًا، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وتَرْك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران، فثبت أن الإنسان لا ينفك ألبتة عن نوع خسران.

واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب؛ فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في الخسران والبوار، **فإن قيل:** إنه تعالى قال في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[التين: ٤، ٥] فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاء إلى النقصان، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكمال، فكيف وجه الجمع؟ **قلنا:** المذكور في سورة التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

اعلم أن الإيمان والأعمال الصالحة قد تقدم تفسيرهما مرارًا، **ثم ههنا مسائل:**

المسألة الأولى: احتج من قال: العمل غير داخل في مسمى الإيمان، بأن الله تعالى عطف عمل الصالحات على الإيمان، ولو كان عمل الصالحات داخلاً في مسمى الإيمان لكان ذلك تكريرًا، ولا يمكن أن يقال: هذا التكرير واقع في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾[الأحزاب: ٧] وقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[البقرة: ٩٨] لأنا نقول هناك: إنما حسن لأن إعادته تدل على كونه أشرف أنواع ذلك الكلي، وعمل الصالحات

ليس أشرف أنواع الأمور المسماة بالإيمان، فبطل هذا التأويل. قال الحليمي: هذا التكرير واقع لا محالة؛ لأن الإيمان وإن لم يشتمل على عمل الصالحات، لكن قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشتمل على الإيمان، فيكون قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مغنيًا عن ذكر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأيضًا فقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشتمل على قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فوجب أن يكون ذلك تكرارًا، أجاب الأولون وقالوا: إنا لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد، لكن الأصل عدمه، وهذا القدر يكفي في الاستدلال.

المسألة الثانية: احتج القاطعون بوعيد الفساق بهذه الآية، قالوا: الآية دلت على أن الإنسان في الخسارة مطلقًا، ثم استثنى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما، فعلمنا أن من لم يحصل له الإيمان والأعمال الصالحة، لا بد وأن يكون في الخسار في الدنيا وفي الآخرة، ولما كان المستجمع لهاتين الخصلتين في غاية القلة، وكان الخسار لازمًا لمن لم يكن مستجمعًا لهما، كان الناجي أقل من الهالك، ثم لو كان الناجي أكثر كان الخوف عظيمًا حتى لا تكون أنت من القليل، كيف والناجي أقل؟ أفلا ينبغي أن يكون الخوف أشد؟!

المسألة الثالثة: أن هذا الاستثناء فيه أمور ثلاثة: **أحدها:** أنه تسلية للمؤمن من فوت عمره وشبابه؛ لأن العمل قد أوصله إلى خير من عمره وشبابه. **وثانيها:** أنه تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الصلاح، وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الفساد. **وثالثها:** قالت المعتزلة: تسمية الأعمال بالصالحات تنبيه على أن وجه حسنها ليس هو الأمر على ما يقوله الأشعرية، لكن الأمر إنما ورد لكونها في أنفسها مشتملة على وجوه الصلاح. وأجابت الأشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة، ولم يبين أنها صالحة بسبب وجوه عائدة إليها أو بسبب الأمر.

المسألة الرابعة: لسائل أن يسأل فيقول: إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب، وفي جانب الربح ذكر السبب، وهو الإيمان والعمل الصالح، ولم يذكر الحكم فما الفرق؟ **قلنا:** إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل، وهو الإقدام على المعصية، يحصل بالترك، وهو عدم الإقدام على الطاعة، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل، وفيه وجه آخر وهو أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل، وفي جانب الربح فصَّل وبيَّن، وهذا هو اللائق بالكرم.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فاعلم أنه تعالى لما بيَّن في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر، وصاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضًا سببًا لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون

عليه أهل الدين، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب، وفي اجتنابهم ما يحرم إذ الإقدام على المكروه والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية فيها وعيد شديد، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتيًا بهذه الأشياء الأربعة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وإنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها الدعاء إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر، ومنه قوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ﴾ [لقمان: ١٧] وقال عمر: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ ولم يقل: (ويتواصون) لئلا يقع أمرًا بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل.

المسألة الرابعة: قرأ أبو عمرو: (بالصبر) بشم الباء شيئًا من الحرف، لا يشبع، قال أبو علي: وهذا مما يجوز في الوقف، ولا يكون في الوصل إلا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وهذا لا يكاد يكون في القراءة، وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر أنه قرأ: (والعصِر) بكسر الصاد ولعله وقف لانقطاع نفَس أو لعارض منعه من إدراج القراءة، وعلى هذا يُحمل لا على إجراء الوصل مجرى الوقف.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «والعصر»

وهي مكيةٌ، وقال قتادةُ: مدنِية. وروي عن ابن عباس[١]. وهي ثلاث آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ①﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أي: الدهر؛ قاله ابنُ عباس وغيرُه[٢]. فالعصرُ مِثلُ الدهر، ومنه قولُ الشاعر:

سَبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهَوَى غَمْرُ ويَوْمُ الهَوَى شَهْرٌ وشَهْرُ الهَوى دَهْرُ[٣]

أي: عصر.

أقسم الله به عزَّ وجلَّ؛ لِمَا فيه من التنبيه بتصرُّفِ الأحوال وتبدُّلها، وما فيها من الدلالةِ على الصانع.

وقيل: العصر[٤]: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

ولَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ يَومٌ ولَيلَةٌ إذا طَلَبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّما[٥]

---

(١) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٢، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٧.

(٤) في الصحاح (عصر) والكلام منه: العصران.

(٥) ديوان حميد بن ثور ص٨، وإصلاح المنطق ص ٤٣٧، والصحاح (عصر). قوله: يومٌ وليلةٌ، هو =

والعصران أيضاً: الغَدَاةُ والعَشيُّ؛ قال:

وأَمْطُلُه العَصْرين حتى يَمَلَّني ويَرْضَى بِنِصْفِ الدَّينِ والأَنْفُ راغِمُ[(١)]

يقول: إذا جاءني أولَ النهار وَعَدْتُه آخِرَه.

وقيل: إنه العشيُّ، وهو ما بين زوالِ الشمسِ وغروبِها؛ قاله الحسن وقتادةُ، ومنه قولُ الشاعر:

تَرَوَّحْ بنا يا عمرو قد قَصُرَ العَصْرُ وفي الرَّوْحةِ الأُولَى الغنيمةُ والأَجْرُ[(٢)]

وعن قتادة أيضاً: هو آخرُ ساعةٍ من ساعات النهار[(٣)].

وقيل: هو قَسَمٌ بصلاةِ العصر، وهي الوسطى؛ لأنَّها أفضلُ الصلوات؛ قاله مقاتل[(٤)]. يقال: أُذِّن للعصر، أي: لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر، أي: صلاةُ العصر. وفي الخبر الصحيح: «الصلاةُ الوسْطَى: صلاةُ العصر». وقد مضى في سورة البقرة بيانُه[(٥)].

وقيل: هو قسمٌ بعصر النبيِّ ﷺ، لِفَضْلِه بتجديد النبوَّةِ فيه[(٦)]. وقيل: معناه: وربِّ العصر.

= بدل من العصرين، يقول: إذا طلبا شيئاً بَلَغاه وأدركاه، لا يفوتهما شيءٌ. وتيمما: قصدا، جعل الهلاك الذي يقع فيهما كأنه من فِعْلهما، وبقَصْدهما يقع. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٥٩٤ .

(١) إصلاح المنطق ص ٤٣٧ ، والأضداد لابن الأنباري ص ٢٠٢ ، والصحاح (عصر) والكلام منه، وهو في ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٧ برواية: ويرضى ببعض الدَّين في غير نائلِ. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٥٩٥ : يقول: أَمْطُل غريمي؛ إذا جاءني في أول النهار وعدته آخر النهار، وإذا جاءني في آخر النهار وعدته في أول اليوم الذي يأتي بعده.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ ، والكلام منه، واللسان (عصر)، وصدره في تهذيب اللغة ٢/ ١٤ ، ووقع في (د) و(ز) و(ي): يروح بنا عمرو وقد...، وهو موافق لرواية البيت في العين ١/ ٢٩٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٢ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٤ بلفظ: ساعة من ساعات النهار.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ ، والوسيط ٤/ ٥٥١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٥) ٤/ ١٧٧ ، وهو في سنن الترمذي (١٨١) من حديث ابن مسعود ﷺ، و(١٨٢) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ .

الثانية: قال مالك: مَن حلَف ألَّا يكلِّم رجلاً عَصْراً لم يكلِّمه سنةً. قال ابن العربيِّ[١]: إنَّما حمل مالكٌ يمينَ الحالِفِ ألَّا يكلِّمَ امرَأً عَصْراً على السنة؛ لأنَّه أكثرُ ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعيُّ: يَبَرُّ بساعةٍ، إلَّا أن تكون له نيةٌ، وبه أقول، إلَّا أن يكون الحالفُ عربيّاً، فيقال له: ما أَرَدْتَ؟ فإذا فسَّره بما يحتملُه قُبِل منه، وإن كان الأقل[٢]، ويجيءُ على مذهب مالكٍ أن يُحملَ على ما يفسَّر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

هذا جوابُ القسم. والمرادُ به الكافر؛ قاله ابن عباسٍ في روايةِ أبي صالح[٣]. وروى الضحاك عنه قال: يريدُ جماعةً من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزَّى، والأسود بن عبد يغوث[٤].

وقيل: يعني بالإنسان جِنْسَ الناس[٥].

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: لفي غَبْن. وقال الأخفش: هَلَكَةٍ. الفرَّاء[٦]: عقوبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]. ابن زيد: لفي شرٍّ[٧]. وقيل: لفي نَقْصٍ. والمعنى متقارب.

وروي عن سلام: «والعَصِر» بكَسْرِ الصَّاد[٨]. وقرأ الأعرجُ وطلحةُ وعيسى الثَّقَفيُّ: «خُسُرٍ» بضم السين. ورَوى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم[٩]. والوجهُ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٧ .

(٢) في النسخ: إلا أن يكون الأقل، والمثبت من أحكام القرآن.

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٨٦ .

(٥) قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٥٩ : هو كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، تريد: الدراهم.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٩ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٣٤ عن زيد بن أسلم.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٧٩ .

(٩) المصدر السابق.

فيهما الإتْباع. ويقال: خُسْر وخُسُر، مثل عُسْرٍ وعُسُر[١].

وكان عليٌّ يقرؤها: «والعَصْرِ ونَوائبِ الدَّهْر، إنَّ الإنسان لفي خُسْر. وإنَّه فيه إلى آخِرِ الدهر»[٢].

وقال إبراهيم: إنَّ الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهَرِم، لفي نَقْصٍ وضَعْفٍ وتراجُعٍ، إلَّا المؤمنين، فإنَّهم تُكتبُ لهم أجورُهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]. قال: وقراءتُنا: «والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ، وإنَّه في آخِرِ الدَّهر»[٣]. والصحيحُ ما عليه الأمةُ والمصاحفُ. وقد مضى الردُّ في مقدِّمة الكتابِ على مَن خَالفَ مصحفَ عثمان، وأنَّ هذا ليس بقرآنٍ يُتلى؛ فتأمَّلْه هناك[٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناءٌ من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناسِ على الصحيح. قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أدَّوا الفرائضَ المفترَضَة عليهم، وهم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ.

قال أبيّ بنُ كعب: قرأتُ على رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ثم قلتُ: ما تفسيرُها يا نبيَّ الله؟ قال: «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قَسَمٌ من الله، أَقْسَمَ ربُّكم بآخِرِ النهار ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى

---

(١) نقل الجوهري في الصحاح (عصر) عن عيسى بن عمر قال: كل اسم على ثلاثة أحرف، أوله مضموم وأوسطه ساكن، فمِن العرب مَن يثقِّله، ومنهم مَن يخفِّفه. وقال السمين في الدر المصون ٢/ ٢٨٥: اختلف النحاة؛ هل الضم أصل والسكون تخفيف، أو الأصل السكون والضم للإتباع؟ والأول أظهر لأنه المفهوم في كلامهم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦١٣.

(٣) أخرجه عبد بن حميد بلفظ: «والعصر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر». الدر المنثور ٦/ ٣٩٢.

(٤) ١/ ١٢٦.

﴿خُسْرٍ﴾ أبو جهل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أبو بكر ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عمر ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ عثمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عليّ» رضي الله عنهم أجمعين[١]. وهكذا خَطبَ ابن عباس على المنبر موقوفاً عليه.

ومعنى ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي: تَحابُّوا؛ أوصى بعضُهم بعضاً، وحثَّ بعضُهم بعضًا. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس. وقال قتادة: «بِالحقِّ» أي: بالقرآن. وقال السدِّيُّ: الحقُّ هنا هو اللهُ عزَّ وجلَّ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله عزَّ وجلَّ، والصبرِ عن معاصيه[٢]. وقد تقدَّم[٣]. والله أعلم.

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٥١.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٤.

(٣) ص٣٠٦ من هذا الجزء.

تفسير سورة العصر

وهى مكية.

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب [لعنه الله] (١) ، وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم فى هذه المدة ؟ قال (٢): لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هى ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ . ففكر مسيلمة هُنَيهة ثم قال : وقد أنزل على مثلها . فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وَبْر يا وَبْر ، إنما أنت أذنان وصَدْر ، وسائرك حفز نَقْز . ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو :والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب (٣) .

وقد رأيت أبا بكر الخرائطى أسند (٤) فى كتابه المعروف بـ « مساوى الأخلاق » ، فى الجزء الثانى منه ،شيئاً من هذا أو قريباً منه (٥) .

والوبْر : دويبة تشبه الهر ، أعظم شىء فيه أذناه ، وصدره وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان فى ذلك الزمان .

وذكر الطبرانى من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الله بن حصن [أبى مدينة] ، قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا ، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر (٦) .

وقال الشافعى ، رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة ، لوسعتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى م : « فقال » .

(٣) وفى صحة هذه القصة نظر ؛ فإن إسلام عمرو بن العاص متقدم على تنبئ مسيلمة ، فإن مسيلمة الكذاب تنبأ سنة عشر من الهجرة، وكان قد وفد على النبى ﷺ مع قومه سنة عشرة من الهجرة ، كما فى السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٤) . وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان على الأصح كما فى الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٢) . ثم وقفت على ما نقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣/ ٢٢٥) : أن عمراً بن العاص أرسله رسول الله ﷺ إلى البحرين وتوفى رسول الله ﷺ وهو هناك وأنه مرّ على مسيلمة وأنه أعطاه الأمان ثم قال له : إن محمداً أرسل فى جسيم الأمر وأرسلت فى المحقرات . . .فذكر نحو القصة ، وعزاه لابن شاهين فى الصحابة ، فعلى هذا يكون ما جاء هنا بعد إسلام عمرو بن العاص وليس قبل إسلامه ، والله أعلم .

(٤) فى أ : « استدل » .

(٥) لم أقف عليه فى المطبوع من مساوئ الأخلاق ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن ابن شاهين وصل هذه القصة من طريق الليث عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : « أن قرة بن هبيرة قدم على رسول الله . . . ثم ذكر أن رسول الله أرسل عمراً إلى البحرين ، فذكر نحو القصة » . انظر : الإصابة (٣/ ٢٢٥).

(٦) المعجم الأوسط برقم (٥٠٩٧) « مجمع البحرين » .

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ .

العصر : الزمان الذى يقع فيه حَركاتُ بنى آدم ، من خير وشر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو العَشى ، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر ، أى : فى خسارة وهلاك ، ﴿ **إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ** ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

آخر تفسير سورة « العصر » ولله الحمد والمنة

سورة العصر

مكيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أقسمَ سبحانه بصلاة العصر لفضلها الباهر،[1] أو بالعشيّ الذي هو ما بين الزوال والغروبِ، كما أقسمَ بالضحى، أو بعصر النبوّة لظهور فضله على سائر الأعصار، أو بالدهر لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: خسران في متاجرهم ومساعيهم، وصَرْف أعمارهم في مباغيهم. والتعريف للجنس، والتنكير للتفخيم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنّهم في تجارة لن تبور، حيث باعوا الفاني الخسيس، واشترَوا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيا لها مِن صفقة ما أربَحَها. وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾... إلى آخره، بيان لتكميلهم لغيرهم، أي: وصّى بعضهم بعضًا بالأمر الثابت الذي لا سبيلَ إلى إنكاره، ولا زوالَ في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كلّه مِن الإيمان بالله عزّ وجلّ، واتّباع كتبه ورسله في كلّ عقد وعمل.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحُكم الجِبلّة البشريّة، وعلى الطاعات التي يشقّ عليها أداؤها، أو على ما يبلو[2] الله عزّ وجلّ به عباده.

---

[1] وفي هامش م: وهي المرادة بالصلاة الوسطى، أي: الفُضلى. «منه».

[2] س ي: يتلو.

وتخصيصُ هذا التواصي بالذِّكر مع اندراجه تحت التواصي بالحقّ لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأنّ الأوّل عبارة عن رُتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبوديّة التي هي الرِّضى بما فعل الله تعالى، فإنّ المراد بالصبر ليس مجرّد حبس النفس عمّا تَتُوق إليه مِن فعل وتَرْك؛ بل هو تلقّي ما ورد منه تعالى بالجميل والرِّضى به ظاهرًا وباطنًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة العصر غفر الله تعالى له، وكان ممّن تواصى بالحقّ وتواصى بالصبر».[١]

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ العَصْرِ

مكيةٌ في قول ابن عباس وابن الزبير والجمهور، ومدنيةٌ في قول مجاهد وقتادة ومقاتل[1].

وآيها ثلاث بلا خلاف، وهي على قصرها جَمَعتْ من العلوم ما جَمَعتْ؛ فقد رُوي عن الشافعي عليه الرحمة أنَّه قال: لو لم ينزل غيرُ هذه السورة لكفت الناس[2]؛ لأنَّها شملت جميعَ علوم القرآن.

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشعب» عن أبي مدينة[3] ـ وكانت له صحبة ـ قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورةَ «والعصر»، ثم يسلِّم أحدُهما على الآخر.

وفيها إشارة إلى حالِ مَن لم يُلهِه التكاثُر، ولذا وُضعت بعد سورته.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ قال مقاتل: أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها؛ لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى،

---

(١) البحر ٨/ ٥٠٩.

(٢) حاشية الشهاب ٩/ ٣٩٥، وفي مفتاح دار السعادة ١/ ٥٦: قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكَفَتْهم. ومثله في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) في الأصل و(م): حذيفة، وفي الدر المنثور ٦/ ٣٩٢: مليكة الدارمي، وجاء في شعب الإيمان (٩٠٥٧): الدارمي، ولم يذكر الكنية، والمثبت من المعجم الأوسط (٥١٢٠)، والإصابة ٦/ ٥٧، وقال الطبراني: قال علي بن المديني: اسم أبي مدينة عبد الله بن حصن. اهـ.

صلاةِ العصر»[١]. ولما في مصحف حفصة: «والصلاة الوسطى صلاةِ العصر»[٢]. وفي الحديث: «مَن فاتته صلاةُ العصر فكأنما وُتِر أهلَه ومالَه»[٣]. ورُوي أنَّ امرأةً كانت تصيح في سكك المدينة: دلُّوني على رسول الله ﷺ. فرآها عليه الصلاة والسلام فسألها: «ماذا حدث»؟ فقالت: يا رسول الله، إنَّ زوجي غاب، فزنيت فجاءني ولدٌ من الزنى فألقيتُ الولدَ في دَنِّ خَلٍّ فمات، ثم بعت ذلك الخلّ، فهل لي من توبة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما الزنى فعليكِ الرَّجْمُ بسببه، وأما القتلُ فجزاؤه جهنمُ، وأما بيع الخلِّ فقد ارتكبتِ كبيراً، لكن ظننتُ أنكِ تركتِ صلاةَ العصر». ذكر ذلك الإمام[٤]، وهو لعمري إمامٌ في نقل مثل ذلك مما لا يعوَّل عليه عند أئمة الحديث، فإياك والاقتداءَ به.

وخُصَّت بالفضل لأنَّ التكليفَ في أدائها أشقُّ؛ لتهافُتِ الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخرَ النهار، واشتغالهم بمعايشهم.

وقيل: أقسم عز وجل بوقت تلك الصلاة لفضيلة صلاته، أو لخلق آدم أبي البشر عليه السلام فيه من يوم الجمعة، والى هذا ذهب قتادة؛ فقد رُوي عنه أنه قال: العصرُ العشيُّ، أقسم سبحانه به كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة[٥].

وقال الزجَّاج: العصر اليوم، والعصر الليلة. وعليه قولُ حميد بن ثور:

ولم يلبَثِ العصران يومٌ وليلةٌ إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تَيمَّما[٦]

وقيل: العصر بُكرةٌ، والعصر عشِيَّةٌ. وهما الأبردان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٦)، ومسلم (٦٢٧) من حديث علي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٣٤٨، وأخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٣٩ برواية: «وصلاة العصر» بالواو، وهي أصح إسناداً من الأولى كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٢٨٣.
(٣) سلف عند تفسير الآية (٣٥) من سورة محمد.
(٤) في التفسير الكبير ٣٢/ ٨٥، ولم نقف عليه عند غيره.
(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣، والبحر ٨/ ٥٠٩.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٩، والبيت في إصلاح المنطق ص٤٣٧، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٦٣، والبحر ٨/ ٥٠٩، وديوان حميد بن ثور، ورواية الديوان: يوماً وليلةً. بالنصب. والمعنى: إذا طلب العصران شيئاً بلغاه وأدركاه، لا يفوتهما شيءٌ. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٥٩٤.

وعليه وعلى ما قبله يكون القسم بواحد من الأمرين غيرِ معيَّن.

وقيل: المراد به عصرُ النبوَّة. وكأنه عنى به وقتَ حياته عليه الصلاة والسلام، فإنه أشرفُ الأعصار؛ لتشريف النبيِّ ﷺ.

وقيل: هو زمان حياته ﷺ وما بعده إلى يوم القيامة، ومقدارُه فيما مضى من الزمان مقدارُ وقت العصر من النهار، ويُؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»[1]. وشرفُه لكونه زمانَ النبيِّ ﷺ وأمتِه التي هي خيرُ أمة أخرجت للناس، ولا يضرُّه تأخيرُه كما لا يضُرُّ السنانَ تأخُّره عن أطراف مُرَّانه، والنَّورَ تأخُّرُه عن أطراف أغصانه.

وقال ابن عباس: هو الدهر، أقسم عز وجل به لاشتماله على أصناف العجائب، ولذا قيل له: أبو العَجَب، وكأنَّه تعالى يذكِّر بالقسم به ما فيه من النِّعَم وأضدادِها لتنبيه الإنسان المستعدِّ للخسران والسعادة، ويعرِّض عز وجل لِمَا في الإقسام به من التعظيم بنفي أن يكون له خسرانٌ أو دخلٌ فيه كما يزعمه من يُضيف الحوادثَ إليه، وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان إشعارٌ بأنه صفةٌ له، لا للزمان، كما قيل:

يَعيبون الزمانَ وليس فيه ... معايبُ غيرَ أهلٍ للزمان

وتُعقِّب بأنَّ استعمالَ العصر بذلك المعنى غيرُ ظاهر.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أي: خسرانٍ في متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها في الآخرة، بل ربما تضرُّ بهم إذا حَلُّوا الساهرةَ.

والتعريفُ للاستغراق بقرينة الاستثناء، والتنكير قيل: للتعظيم، أي: في خُسرٍ عظيمٍ. ويجوز أن يكون للتنويع، أي: بنوعٍ من الخُسرِ غير ما يعرفه الإنسان.

(١) صحيح البخاري (٥٥٧).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم في تجارة لن تبور، حيث باعوا الفاني الخسيس واشتروا الباقي النفيسَ، واستبدلوا الباقياتِ الصالحاتِ بالغاديات الرائحاتِ، فيا لها من صفقةٍ ما أربَحَها، ومنفعةٍ جامعةٍ للخير ما أوضحها.

والمراد بالموصول كلُّ مَن اتصف بعنوان الصلة، لا عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وسلمان الفارسيُّ رضي الله عنه فقط، كما يُتوهَّم مِن اقتصار ابن عباس رضي الله عنهما في الذكر عليهما[١]، بل هما داخلان في ذلك دخولاً أوليًّا، ومثل ذلك اقتصارُه في الإنسان الخاسر على أبي جهل[٢]، وهو ظاهر.

وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إلخ بيانٌ لتكميلهم لغيرهم، أي: وصَّى بعضُهم بعضاً بالأمر الثابتِ الذي لا سبيلَ إلى إنكاره، ولا زوالَ في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كلُّه من الإيمان بالله عز وجل واتباع كُتُبه ورُسُله عليهم السلام في كلِّ عقد وعمل.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلَّة البشرية، وعلى الطاعات التي يشقُّ عليها أداؤُها، وعلى ما يبتلي الله تعالى به عبادَه من المصائب[٣].

والصبرُ المذكور داخلٌ في الحقِّ، وذُكر بعدَه مع إعادة الجارِّ والفعلِ المتعلِّق هو به لإبراز كمال العناية به، ويجوز أن يكون الأولُ عبارةَ رتبةِ العبادة التي هي فعلُ ما يُرضِي اللهَ تعالى، والثاني عبارةَ رتبةِ العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى، فإنَّ المراد بالصبر ليس مجرَّدَ حَبْس النفس عما تَتُوق إليه من فعلٍ أو تركٍ، بل هو تلقِّي ما وَرَدَ منه عز وجل بالجميل، والرضا به باطناً وظاهراً.

وقرأ سلَّام وهارون وابن موسى عن أبي عمرو: «والعَصِر» بكسر الصاد، و«الصَّبِر» بكسر الباء[٤]، قال ابن عطية: وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢ لابن مردويه.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في هامش الأصل: واستظهر أن المراد: وتواصوا بالصبر على الحق. اهـ منه.
(٤) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر ٨/ ٥٠٩.

الحركة، ورُوي عن أبي عمرو: «بالصَّبِر» بكسر الباء إشماماً، وهذا كما قال: لا يكون أيضاً إلا في الوقف[1]. وقال صاحب «اللوامح»: قرأ عيسى البصرة: «بالصَّبِرْ» بنقل حركة الراء إلى الباء[2]؛ لئلا يُحتاجَ إلى أن يُؤتَى ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يُسكَّن فيُجمع بين ساكنين، وذلك لغةٌ شائعةٌ وليست بشاذَّةٍ، بل مستفيضةٌ، وذلك دلالةٌ على الإعراب، وانفصالٌ من التقاء الساكنين، وتأديةُ حقِّ الموقوف عليه من السكون. انتهى، ومِن هذا كما في «البحر» قولُه:

أنا جريرٌ كنيتي أبو عَمِرْو ... أضربُ بالسيف وسعدٌ في القَصِرْ[3]

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه كان يقرأ: «والعَصْرِ ونَوَائبِ الدَّهْر، إنَّ الإنسانَ لفي خُسْر، وإنَّه لَفِيه إلى آخِرِ الدهر»[4].

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي داود في «المصاحف» عن ميمون بن مهران أنه قرأ: «والعصر، إن الإنسانَ لفي خُسْر، وإنه لفيه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا. . .» إلخ وذكَر أنها قراءة ابن مسعود[5].

هذا واستدلَّ بعضُ المعتزلة بما في هذه السورة على أنَّ مرتكِبَ الكبيرة مخلَّد في النار؛ لأنه لم يستثن فيها عن الخُسرِ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. . إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ٥٠٩.

(٢) البحر ٨/ ٥٠٩، والكلام وما بعده منه.

(٣) البحر ٨/ ٥٠٩، وعنه نقل المصنف كلام صاحب اللوامح، والرجز في أخبار القضاة ٣/ ٧٠، وتاريخ الطبري ٣/ ٥٧٧ و٥٨٠، والقراءات الشاذة ص ١٧٩، والبدء والتاريخ ٥/ ١٧٦، وتاريخ مدينة دمشق ٢٠/ ٣٥٣، والإنصاف ٢/ ٧٣٣. وجرير: هو ابن عبد الله البجلي، أنشد الرجز يوم القادسية. وسعد: هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه. ووقع في الأصل و(م)، والقراءات الشاذة والبحر: العصر، بدل: القصر. وهو خطأ.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٣، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٣٤، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٩٢.

(٥) المصاحف ١/ ٢٩٧ عن ميمون بن مهران، وأخرجه عبد بن حميد عن إبراهيم وسعيد بن جبير كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٢.

وأجيب عنه بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر مِن كون غير المستثنى في خُسرٍ، وأما على كونه مخلَّداً في النار فلا، كيف والخُسرُ عامٌّ، فهو إمَّا بالخلود إن مات كافراً، وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً ولم يُغفَر، وإمَّا بفَوت الدرجات العاليات إن غُفِر.

وهو جوابٌ حسن، وللشيخ الماتريدي رحمه الله تعالى في التفصِّي عن ذلك تكلُّفاتٌ مذكورة في «التأويلات»[1] فلا تغفل.

وفي السورة من الندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يُحِبَّ المرءُ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ما لا يخفى.

---

(١) ٥/٥١٧.